النقد والتعريف

نشاط المسلمين البحري

الاستاذ محمد حميد الله

كتاب بالأوردية للدكتور أبي النصر محمد خالدي طبع
دهلي سنة ١٩٧٤ صفحاته ٤٥٦ من القطع المتوسط

إن العنوان الأصلي للكتاب بالعربية هو « نشاط المسلمين البحري » والعنوان الذيلي : « بعض المعلومات الأساسية وشرحها » ومؤلف الكتاب هو أحـــد أساتذة التاريخ الاسلامي في الجامعة العثمانية ، بحيدر آباد الدكن (بالهند الجنوبية) دخل الاسلام في الهند ـ كما ذكر البلاذري (فتوح البلدان ، ص ٣٤٨ وما بعدها) ـ في خلافة سيدنا عمر ، فهو إذاً يعاصر إسلام الشام ومصر . ولم يزل ولا يزال الاسلام ينتشر في تلك النواحي . وشوق المسلمين الهنديين إلى العلوم الاسلامية والى تاريخ ثقافتهم لا يقل عما هو عند إخوانهم من بلدان أخرى . وبما أن الاسلام دخل في الهنـــد بالبحر أولا ، ثم بالبر بعد ذلك (زمن الغزنويين) فإنهم يهتمّون بتاريخ علم الملاحة عند المسلمين القدماء كما يهتمون بتاريخ الأندلس مع بعدها من الهند .

الأستاذ خالدي يشتغل بالموضوع منذ زمن طويل ويجمع المعلومات من كل ما يقرأ . ولكن بدل أن يدوّن كتابه لعامّة القرّاء ، فضّل أن يؤلف « دائرة معارف » ، ليرجع اليها العلماء كلما بَدَا لهم حاجة . وللناس فيما يعشقون مذاهب .

فقسّم الكتاب على أبواب : الأسماء (العربيـــة) للسفينة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولأجزاء السفينة ، ولعمّال السفينة ، ولما يتعلق بسير السفينة . ثم باب جمع فيه أموراً متنوعة (مثل تاريخ الحروب البحرية عند المسلمين ، أزمان السفر للسفينة الشراعية ، حكايات وخرافات مأثورة عن المسافرين في البحر ، أدعية لهم لمخافة الغرق ، نصب الراية على السفينة ، قصائد في توصيف السفر البحري ، الروايات البحرية عند قدامى المسلمين ، ذكر البحر في القرآن والحديث ، ضروب الأمثال مما يتعلق بالبحر) ولكن باختصار كثير . وفي الأخير : فهرست المصادر

الباب الأول هو تمهيد يتأسف فيه لقلّة الكتب الاسلامية في الملاحة مع أن المسلمين حكموا بحار العالم طويلاً والقرآن مملوء بأذكار الأسفار البحرية . فالمؤلف يريد أن يساهم في تلافي ما فات . وهو يعرف الكتب التي صدرت : كتب ابن ماجد وسليمان المهري و « بيري رئيس » التركي وما صدر أخيراً من كتب اسماعيل سرهنك ، وعبد الفتاح ، وحبيب زيات ، ومحمد ياسين ، وعلي محمد فهمي (الاخير بالانكليزية) ، ويعرف أيضاً أكثر ما كتبه المستشرقون ، ولكنه يقول : كل هذا لا يشفي الغليل ، ويعترف أن ما كتب هو ليس الا كالقطرة . وهناك فهرس للمصادر أيضاً في آخر الكتاب ، ليته أدخل فيها الكتب والمقالات الافرنجية بالخط اللاتيني لأنه يصعب معرفة أسماء الافرنج بالخط العربي خاصة إذا كان الانسان لا يعرف اختلاف التلفظ باللغات المختلفة . ذكر مثلاً فاكنان[1] (ص ٣٤) وفاكاتان[1] (ص ٣٦) فكم منا يفهم منه Fagnan (فاين يان الفرنسي) ؟ . وحق للمؤلف أن يبجل كتاب « عربون كني جهاز راني » (بالاوردية) للسيّد

(١) اللفظتان بالكاف الفارسية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سليمان ندوي ، ولكن ليته ذكر أيضاً أن هذا الكتاب ترجم إلى الانكليزية ونشر مجزءاً في مجلة Islamic Culture سنة ١٩٤١ — ١٩٤٢ في حيدر آباد ، وطن مؤلفنا . اننا نعذره عندما كتب (بيري رائز) (ص ١٠) بدل « بيري رئيس » التركي . ونعذره أيضاً لأنه لم يعرف نه نشر عدة رسائل بحرية لابن ماجد أسد البحر ، وهذا في روسيا ، لأن استاذنا يسكن في بلاد تصعب فيها الحياة الاقتصادية وبالتالي يصعب استيراد الكتب من الخارج . ولكن لابد أنه يوجد في جامعة حيدر آباد كتاب Pearson: Index Islamicus وفيه ذكر المقالات المنشورة في المجلات . ففي أثناء « الرحلات » يذكر أيضاً « الملاحة » Navigation فليراجع اذن الباب VI/d . وأذكر أن هناك مخطوطة بالقاهرة : « الإعلام عن الحروب الواقعة في صدر الاسلام » ليوسف بن ابراهيم الاندلسي ، وفيها ذكر الحروب البحرية أيضاً . والمسلمون من الأندلس وغربي إفريقيا اكتشفوا أميركا قبل كولومبوس بقرون كما ذكره المسعودي والادريسي وابن فضل الله العمري . ويراجع هنا :

(Les Musulmans en Amérique d'avant Christophe Colomb, France - Islam, Paris, N 11 - 14, Janvier – avril 1968)

ولا بأس أن يشير مؤلفنا إلى هذا أيضاً . واستسمح أن ألفت نظره إلى الكتب والمقالات التالية أيضاً :

1. G. Jacob, Der Nordisch - baltische Handel der Araber in Mittelalter, 1871 .
2. Fr. Hirth & W. W. Rockhill, Chau - Ju - kua, his work on the Chinese and Arab Trade in the 12 th and 13 th centuries , entitled chu - fau - chi, St Petersburg , 1911 .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

3. Pelliot, Deux Itinéraires de Chine en inde, dans : Bulletin de L'Ecole Francais d'extrême - orient, I V.
4. Les Grandes Escales, série Société Jean Bodin, Bruxelle, 3 vols. (Les escales arabes au début de L' Islam, etc.) 1974.
5. T. Lewicki, Les Premiers commerçants arabes en Chine, dans Rocznik Orijentalistyczny, Lvov pologne, XI, 173 - 186, 1936 .

منهج الكتاب ، كما ذكرنا ، يشبه أن يكون موسوعة . فالباب الاول أسماء السفينة بالعربية ويمتد على مائة وخمسين صفحة . وقد اشتغل به آخرون قبله ولكن هذا أجمع ، فيذكر ما يتجاوز المائتين وعشرين اسما من بينها اليخت Yacht والوابور Vapeur والفرقاطة Fregate والغواصة . ولكن لم أجد فيها « الجارية » مع أنها مذكورة في القرآن (حملناكم في الجارية – فالجاريات يسرا – ومن آياته الجوار في البحر – وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام) وفي غزوة تبوك ، صالحه صلى الله عليه وسلم أهل مقنا (على خليج العقبة ، في العربية السعودية) ونقل ابن سعد والبلاذري نص المعاهدة وذكر فيها « نصف ما صادت عروككم » ، فيجوز أن يكون معنى العروك السمّاكين ، ويجوز نوع من السفائن الصغار لصيد السمك . ومنهج المؤلف أنه يذكر فوائد صادفها في ذكر كل اسم من أسماء السفن . مثلا يذكر الحرّاقات (ص ٥٦ – ٥٧) لتحريق سفن العدو ، ومال الى أنها كانت موجودة في عصر الأمويين ولكن لم يجد الشواهد . وأذكّر بالشاهد التالي : عن سلمة بن الاكوع رضى الله عنه قال : « ركبنا البحر زمن معاوية رضي الله عنه ولقينا العدو فرميناهم بالمحرّقات »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(شرح السير الكبير للسرخسي ، طبع حيدر آباد ، ١٣٣٦ هـ ، ج ٣ ، ص ٢١٣ ، إن نشرة صلاح الدين المنجد لم تتم بعد) . وبحث في « دونيج » (ص ١٧) وتذبذب ولم يتذكر عندما كتب صفحة ٢٢٦ ، فان هذه الكلمة معربة من دونكي (دطونكي) الهندية . وبحث في كلمة بارجة (ص ٢٥٢) وهي أيضاً معربة من الهندية بيرد (بيرطه) ، بمعنى الاسطول .

هو عرف قصة ملك البلغار من رحلة ابن فضلان ، ولكن لم يصب عندما ظن (ص ٨٨) أن المراد به البلغاريا في مقدونية ، بل هو قازان وما في جواره على نهر وولكا (والبلغار عرّبوه أحيانا أيضاً البرجان) . وذكر مالديب (ص ١٤٤) ورسمه أيضاً مالديو (ص ٣٥٠) كأنه تأثر باملائه الانكليزي Maldive بينما أهل تلك البلاد (وهي عضو في الامم المتحدة) يكتبون « محل ديب » ؛ وديب معناه الجزيرة (ونجده في لكاديب وسرنديب وغيرهما) . ولم يصحح تجارب الطبع (ص ١١٢ العدوليلة وصوابه : العدولية . وص ١٢٩ الفلكوكة ، وصوابه : الفلوكة) . وما اقبح ما جاء خطأ (ص ٢٨٠ « إعراب وثلاثة تين سورة » وأراد « إعراب ثلاثين سورة » . بحث في كلمة نوتى (ص ١٦٦) وعرف صلتها باليونانية ناوتا ، ثم بحث (ص ٢٨٣ – ٢٨٤) في « ناخدا » وقال إن كلمة « ناو » الهندية – دخلت في اليونانية . ولكن مادامت اليونانية واللاتينية من جهة والسنسكرتية من جهة أخرى ، كلها من نفس عائلة اللغات « الهندية – الاوروبية » فهل تحتاج اللاتينية أن تستعير هذه الكلمة من الهند ؟ ثم ان المعاجم الغربية الحديثة تذكر أن هذه الكلمة لاتينية Navis .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم جعل باباً جديداً لألقاب السفينة وأجزائها ، على حروف الهجاء ، ثم باباً آخر لعَمَلة السفينة ، وباباً آخر للأفعال المتعلقة بالملاحة وسير السفينة ، ثم باباً جديداً لمتعلقات البحارة وسير السفائن . وهذه الأبواب تمتد من ص ١٧٠ الى ٢٧٧ .

بحث في بيسر وبياسرة (ص ٢٥٢) ولكن لم يمر بباله أن هذه الكلمة معربة من الفارسية « بسر » ومعناه « الابن » والمراد به إذا كان الأب عربياً والأم عجمية . واستعمل العرب مصطلح « الأبناء » أيضاً ، وهما صنفان ، وكثر ذكرهما في تاريخ اليمن قبل الإسلام ومنذ الإسلام . وكذلك بحث في كلمة « أريس » واكتفى بما ذكره ياقوت الحموي بينما هذه الكلمة وردت في رسالة النبي عليه السلام الى هرقل يدعوه الى الاسلام ويزيد : فان أبيت فعليك إثم الأريسيين (أو : اليريسيين) . ونقل (ص ٢١٤) « اعشا سفن البحر » ، ولا بد أنه يريد « اعشار سفن البحر » .

ثم بوب باباً وعنونه : « متفرقات » جمع فيه معلومات قليلة جداً عن كل من « الحروب البحرية الاسلامية » ، و « مواسم سفر السفن الشراعية » ، و « ثروة البحريين » ، و « حكايات وخرافات لمسافري البحر » ، و « أدعية وقت السفر البحري » و « المسائل الشرعية عن سفر البحر » ، و « رايات على السفينة » ، و « قصائد لوصف سفر البحر » ، و « اشتغال العرب بالبحارة » ، و « ذكر البحر في الحديث » و « ضروب الامثال عن السفينة » . ولكن لم يجد الا القليل من المعلومات . وسيأذن لنا أن نلفت نظره الى بعض الأمور :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ـ ذكر (ص ٢٩٨) النجار القبطي (واسمه باقوم) عند بناء قريش الكعبة قبيل البعثة ، وأكد أن عمل هذا النجار كان يتعلق بنجر باب الكعبة ، بينما يقول ابن هشام والازرقي أن قريشاً استعملوا خشب السفينة التي انكسرت قريب الشعيبة (جدة) لتسقيف الكعبة كلها . ولما نقص الخشب جعلوا الحطيم بدون سقف .

ـ يذكر كلمة الفرضة (ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥) . وأضيف : أهم نص في هذا الموضوع : « أسواق العرب ... ثم يرتحلون منها إلى المشقر بَهَجَر فيقوم سوقها ... فتوافي بها فارس يقطعون البحر إليها ببياعاتهم ... ثم سوق دبا وهي إحدى فرضتي العرب يأتيها تجار السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب ... وكان الجلندي بن المستكبر يعشرهم فيها وفي صُحار ويفعل في ذلك فعل الملوك بغيرها » (كتاب المحبر لابن حبيب ، طبع حيدر آباد ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦) . (يراجع أيضاً تاريخ اليعقوبي ١/٣١٣ ـ ٣١٥ ، ونهاية الارب للنويري ص ٤٦٤ ، وكتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقي طبع حيدر آباد ٢/١٦١ وما بعد ، وكتاب أسواق العرب للأستاذ سعيد الافغاني) .

ـ ذكر أدعية المسافرين على البحر . ولم يتذكر أجمل دعاء علمه القرآن : « قال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم » .

ـ ذكر مراجع كثيرة لكتب الحديث النبوي حيث وردت كلمة البحر ، كأنه نقل عن المعجم المفهرس لـ : فنسنك بدون ذكر اسمه . ولكن لا ندري لماذا أهمل نفس المصدر لكلمة سفينة ، وفلك ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجارية وغيرها . ثم في ذكر كلمة البحر لم يميز بين ما يتعلق بموضوعه وما لا يتعلق مثل « بحر البحيرة » و « اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه » . فبحر البحيرة يتعلق بالحيوان مثل الابل والشاة . وأهل البحيرة معناه أهل المدينة المنورة ، والبحيرة من الاضداد ، تدل على البر كما تدل على البحر . وذكر الحديث « فاعمل من وراء البحار » وهي الصحاري .

ـ وعندما قرأت القصيدتين بالفارسية والهندية عن وصف سفر البحر (ص ٤١٢ – ٤١٤) تذكرت ما اقترحت قبل زمن طويل ، أن الاسفار البحرية ليوليسيس (من تصنيف هومر اليوناني) معروفة وكذلك أسفار السندباد البحري في ألف ليلة وليلة . ومن الغريب أن أحد الأسفار مشترك بينهما وهو في قصة الجني ذي العين الواحدة الذي يأكل لحم الانسان ويتخلص يوليسيس وسندباد منه بصعوبة . لم تعرف ترجمة هومر إلى العربية فكيف تعلّم مؤلف هذا القسم من ألف ليلة وليلة قصة يوليسيس ؟ اقترحت أن السريانيين مثلا حكَوْا للعرب قصص هومر شفاها ، فبنَوْا عليها قصة أسفار السندباد البحري . والله أعلم .

ـ ذكر جران السعود (ص ٤٤٦) ، وهو يريد طبعاً جران العوْد الشاعر .

ـ ذكر المثل « ما بلّ بحرٌ صوفة » (ص ٤٣٨) وظن أن الصوفة هي زبد أمواج البحر . أنا مـا أظنه كذلك . ذكر ابن البيطار « صوف البحر » (لعله هو) فيقول : كان بعض الناس فيما مضى يزعم أنه نوع من الطحلب البحري ينبت على حجارة أقاصير البحر . وليس الأمر كما ظن بل هو شيء يوجد في بحر المشرق وببلاد الروم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبأقاصير اسفاقس أيضاً من بلاد القيروان . وأكثرها يكون بقربة من بلاد القيروان ، وأكثرها بقربة من قصر زياد ، وبقربة قيودية أيضاً يوجد في صدفة كبيرة على قدر يد الانسان أعلاها عريض وطرفها دقيق إلى الطول ما هو كأنه فم طائر ، ظاهرها خشن ، فيه زوايا طويلة ناتئة ، منها دقاق ومنها ما يكون في غلظ أقلام الكتاب ، فارغة الداخل . ولون الصدفة كلون اللؤلؤ . وداخلها لون أصفر مليح المنظر الى الحمرة ما هو . وفي داخل الصدفة حيوان مؤلف من أشياء تشبه الأعصاب والكبد الأبيض والاسود كنبات اللوبيا ، قائم غير معوج المصير . وفي الطرف من المصير مما يلي الحادّ من الصدفة يكون الصوف المعروف . خلقة عجيبة للخلاق العظيم سبحانه وتعالى ... »

وقال الاصطخري في المسالك والممالك (ص ٤٢) تفصيلا عن هذا الصوف : « وتقع بشنترين في وقت من السنة من البحر دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وَبَرٌ في لين الخز ، لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئاً . وهو عزيز قليل فيجمع وتنسج منه ثياب فتتلوّن في اليوم ألواناً . ويحجر عليها ملوك بني أمية ولا ينقل الاّ سرّاً . وتزيد قيمة الثوب على ألف دينار لعزته وحسنه . وقال المستشرق دي خويه في حاشية الاصطخري : « إن اسم هذا الحيوان البحري أبو قلمون » ومثل هذا الكلام يدل على قرب علائق أهل جزيرة العرب قبل الاسلام بالبحارة ودقة نظرهم فان صوف البحر لا يوجد إلاّ بعيدا من جزيرة العرب في غاية الندرة ومع ذلك دخلت الكلمة في أدبيات العرب فقالوا : ما بلّ بحرٌ صوفة .

ومن لطيف ماذكر وهو منقول من ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١٢٨/١) : عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه في خلافة معاوية رضي الله عنه : هو أول من نشر الرايات على السفن . ونقل أيضاً عن الطبري في أحوال سنة ٢٦٨ للهجرة نصب الأعلام على السفائن .

– لم يذكر مؤلفنا آيات القرآن مثل « ريح طيبة . . . ريح عاصف » وكذلك « تذهب ريحكم » وهذا الاخير لا بد أن يكون من كلام أهل البحر : اذا ذهبت الريح من الشراع ظلت السفينة راكدة معطلة . وكذلك لم يشر الى قصة تميم الداري المذكورة في صحيح الامام مسلم ، وكلمة « داري » معناها الملاّح .

– لم يصحّح في تجارب الطبع (ص ٤٣٣) « أسماء بنت عميس . قال عمر الحشية »(اقرأ : الحبشية) . هذاه البحرية (اقرأ : هذه ، البحرية) .

الكتاب معدن للمعلومات وننتظر الطبعة الثانية المنقحة والمزيد فيها .

باريس : محمد حميد الله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net